عن صلاتهم ساهون

يقول تعالى فى كتابه العزيز فى سورة الماعون [أرأيت الذى يكذب بالدين - فذلك الذى يدع اليتيم - ولا يحض على طعام المسكين - فويل للمصلين - الذين هم عن صلاتهم ساهون - الذين هم يراءون - ويمنعون الماعون] والسورة الكريمة، مثلها مثل معظم سور جزء عم، قليلة الآيات، كثيرة وعظيمة المعانى، تحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر.

وأكثر ما يلفت فى هذه السورة قوله تعالى [فويل للمصلين] الذى يضرب الناس به المثل بعدم الوقوع فى اقتطاع الآية من سياقها عند محاولة معرفة معناها، وأنه ينبغى النظر إلى سياق الآيات، فالآية التالية لها هى [الذين هم عن صلاتهم ساهون] والتى توضح ما قد يلتبس من معنى فى الآية السابقة لها، فالويل والعذاب إنما يقع على المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، وهم بعض من المصلين وليس جميعهم. روى فى تفسير [عن صلاتهم ساهون] عن الرسول صلى الله عليه وسلم بسند ضعيف أوعن ابن عباس رضى الله عنه بسند لا أعرف صحته من ضعفه قوله (الذين يؤخرونها عن وقتها) كما ورد بسند ضعيف أيضا عن الرسول الكريم قوله (الله أكبر هذه خير لكم من لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا، هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه). وأنا أميل كثيرا إلى تدبر الحديث الأخير فى بقية هذا المقال.

والحقيقة إنه بالنظر إلى السورة كلها بجميع آياتها وترتيبها وسياق الآيات والروابط بين الآيات، أجدها محيرة جدا وتحتوى على العديد من المعانى العميقة، فالسورة الكريمة تتحدث عن صفات المنافقين والمشركين، فبدأت بالتكذيب بالدين، والمقصود فى الغالب الذى أورده المفسرون هو التكذيب بيوم الدين وهو يوم القيامة، أى أن كلمة "يوم" محذوفة من الآية الكريمة اختصارا، وأظن أن المفسرين اختاروا ذلك لما ورد فى سورة أخرى [وكنا نكذب بيوم الدين] وأنا أميل إلى ذلك التفسير. ثم تضمنت السورة آيتين تتحدثان عن عملين محددين من أعمال الشر وهما [فذلك الذى يدع اليتيم] أى يقسو عليه ولا يكرمه والآخر [ولا يحض على طعام المسكين] وهذه الآية تحتاج إلى كثير من التدبر، وهى تتحدث عن مرحلة ما قبل إطعام المسكين، وهى البحث عن المساكين أولا، ثم البحث عن من يطعمهم ثانيا، ثم دعوته إلى إطعامهم، وهذه مسئولية مجتمعية عظيمة يشترك فيها جميع الناس. ثم انتقلت الآية إلى التهديد والوعيد للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين يراءون، وسوف أستطرد فى ذلك لاحقا، ثم اختتمت السورة باستكمال الوعيد للذين يمنعون الماعون، أى الذين يمنعون عن الناس إعانتهم بالمال والخير والأدوات والطرق الممهدة وما إلى ذلك. فإجمالا تتحدث السورة عن إنكار يوم القيامة ثم إهمال اليتيم والمسكين ثم السهو فى الصلاة ثم الرياء ثم منع الخير عن الناس.

قبل التدبر فى معنى الآية أود التوقف عند نقطة هامة، إذا كانت الآية موجهة إلى المنافقين والمشركين، فهل يحتاج المسلمون إلى تدبرها؟ الإجابة نعم بلا شك، لأن المسلم قد يقع فى النفاق الذى هو إظهار غير ما يبطن أو الرياء الذى هو فعل ما يعجب الناس ليثنى عليه الناس وليس ابتغاء مرضاة الله، أو الشرك الذى هو طاعة الناس فى معصية الله، ولأن القلوب تتقلب وينبغى على المسلم أن يعرف صفات المنافقين والمشركين حتى لا يقع فيها، فقد يكون الرجل مكتوبا عند الله منافقا أو مشركا وهو لا يشعر، لأن الإسلام إيمان وأفعال وليس إيمان فقط، والمسلم الذى يأتى بأفعال الشر لديه نقص من إيمانه باليوم الآخر الذى يحاسب كل إنسان فيه على ما يفعل. وأود هنا على التنبيه بأنه ينبغى على المسلم ألا يتهم أحدا بالنفاق أو الشرك، وإنما ينبغى عليه أن يحذر أن يقع هو نفسه فى النفاق أو الشرك. وذلك لسببين أولهما أن النفاق عمل قلبى لا يمكن لإنسان أن يعرفه، وينبغى على الإنسان المسلم ألا يسعى لتصنيف الناس وأن يتخلص من هذا الهوس والخبل الذى يصيب المسلمين فى هذا العصر، وأن ينشغل بنفسه. والثانى تأسيا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، عندما أطلعه الله على أسماء المنافقين وأمره ألا يصلى عليهم عند موتهم فلم يعرف أسماؤهم أحد وعاملهم الرسول والصحابة معاملة المسلمين، ثم أسر النبى بأسمائهم لحذيفة بن اليمان رضى الله عنه حتى لا يصلى عليهم المسلمون عند موتهم، واحتفظ الصحابة جميعهم بالسر ولم يعرف أسماؤهم بعد ذلك.

أعود للسورة الكريمة، كما إن الآية [فويل للمصلين] مرتبطة بالآية التى تليها [الذين هم عن صلاتهم ساهون] فهى مرتبطة أيضا بالتأكيد بالآيتين الأخيرتين [الذين هم يراءون - ويمنعون الماعون] لأن التركيب اللغوى متطابق تماما بين [الذين هم عن صلاتهم ساهون] وبين [الذين هم يراءون] مما يدل على أن الذين يسهون عن صلاتهم هم أنفسهم الذين يراءون ويمنعون الماعون، ويوحى ذلك فيما أرى بوجود ارتباط شديد بين السهو عن الصلاة وبين الرياء ومنع الخير، وبالإضافة إلى ذلك فإننى أظن أن جميع آيات السورة الكريمة مرتبطة بشدة، وهنا أبحث عن معنى السهو عن الصلاة فى ضوء هذا الارتباط.

وسوف أتناول السهو فى الصلاة بالمعنى الذى جاء فيما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم بإسناد ضعيف (هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه) أى أنه يدخل الصلاة تأدية بحكم العادة لايرجو خيرها ولا يتأمل ويتدبر فى أعمال الصلاة وأقوالها، وإن ترك الصلاة أى انتهى أو فرغ منها لم ينتفع بما قاله وفعله فيها ولم تؤثر على سلوكه وإيمانه فلا يخاف الله، فهو أثناء الصلاة يسهو عما يقول ولا يعيه، وبعد الصلاة يسهو عما قاله فيها فلا يذكره ولا ينتفع به فى دنياه وآخرته.

وهنا أود أن أتأمل فى بعض أقوال الصلاة، التى هى منحة من الله للمسلمين وليست عبئا، فأول ما يستدعى الانتباه هو تكرار قول "الله أكبر" فى الصلاة، ثم قراءة الفاتحة بما فيها من تعظيم الله تعالى وطلب الهداية منه، وتعظيم الله تعالى فى التسبيح، والانقياد له فى الركوع والسجود، وطلب المغفرة والرحمة والبركة والرضا من الله تعالى فى التشهد. فإن من يعى ما يقول فى صلاته أو بعض منه، هل يمكن بعد ذلك أن يقع فى الشرك الذى هو طاعة الناس فى معصية الله؟ أو الرياء الذى هو فعل ما يعجب الناس ليثنوا عليه و ليس ابتغاء مرضاة الله؟ أو النفاق الذى هو إظهار ما لا يبطن؟ وكيف ذلك وهو يقر بأن الله أكبر من الناس والدنيا وكل شىء عشرات المرات فى يومه وليلته؟ ما أهمية أن يثنوا عليه، أو أن يعجبهم ما يفعله، أو أن يرضوا عنه؟ وكيف ذلك وهو يقرأ سورة الفاتحة مرات عديدة يطلب فيها الهداية من الله ويقر بملكه ليوم القيامة الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم وتتكشف فيه كل الحقائق؟ وكيف ذلك وهو يسبح الله تعالى الأعلى من كل شىء والأعظم من كل شىء فى الركوع والسجود ويطلب رضاه ومغفرته وبركته ورحمته فى التشهد؟

ومن هنا يظهر الرابط بين السهو عن الصلاة وبين الرياء وبين التكذيب بيوم القيامة، والتكذيب بيوم القيامة أنواع، منه إنكار البعث بالكلية، ومنه إنكار الجنة والنار، ومنه الظن بأن بعض الناس لهم قوة وسلطة تنجيه من عذاب الله يوم القيامة إذا أطاعهم [ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى]. ولكن ما السبب وما النتيجة فى هذه الأمور الثلاثة؟ هل التكذيب بيوم القيامة يؤدى إلى الرياء الذى يؤدى إلى السهو عن الصلاة؟ أم أن السهو عن الصلاة هو الذى يضعف إيمان المسلم فيؤدى إلى الرياء ثم التكذيب بيوم القيامة؟ أظن أن كل منها قد يكون سببا أو نتيجة للآخر. وينتج عن الرياء وعدم مراقبة الله تعالى أفعال الشر التى ذكرت فى السورة.

ويبقى هنا ما ورد فى الحديث (الله أكبر هذه خير لكم من لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا) فكيف يكون ذلك والسورة تتحدث عن صفات المنافقين والمشركين؟ قلت قد يكون ذلك لأن فى السورة ما يفيد أن الخشوع فى الصلاة وتدبر أفعالها وأقوالها السهلة البسيطة عميقة المعنى وذكر المسلم ما قاله وفعله فيها بعد الانتهاء منها ما هو كاف للوقاية من الشرك والنفاق مما يؤدى الى رضا الله تعالى والجنة، وفى ذلك هبة عظيمة ومنحة من الله تعالى أن فرض الصلاة على المسلمين ويسرها وفهمها لهم.

والله تعالى أعلم

أمين علام 19 نوفمبر 2015